

سوسيولوجية الجسد

براهيمي سامية

جامعة الجزائر 2 بورزيعة

لقد إخترق مفهوم الجسد الثقافة الحديثة: حيث بدت مسكونة به في كل تعابيرها وإفرازاتها، ساعية لتأكيد حضوره في كل المجالات. لكن الجسد يبدو يقينيا لدرجة إستغراب التساؤل حوله ، فحسب لوغوف: "إن الجسد مفهوما إشكاليا، وتصنيفا تاريخيا معجونا بالمتخيل".⁽¹⁾

ففي حقيقة الأمر إن دخولنا إلى العالم هي اللحظة التي يظهر فيها جسدنا- أي الدقائق الأولى لميلادنا ،وجودنا ومحل هويتنا هو جسدنا، كذلك موتنا يحصل على مستوى جسدنا. فجسدنا هو الذي يتيح لنا إمكانية الفعل والتفاعل. ومن خلال الجسد يعرف الفرد، ويفصل عن الآخرين، إنه يربط الفرد مع كل الطاقات المرئية واللامرئية عبر العالم، إنه الحاضر دائما، وبشكل واضح في كل عمل فردي أو اجتماعي. كل هذا شجعنا للخوض في موضوع الجسد حتى نتوصل إلى معرفته، أو ربما الكشف عن المزيد من أسرارهِ.

1- تاريخ الجسد:

لا يمكننا أن نفهم الكيفية التي طغى بها حضور الجسد في كل مجالات، إلا بعد التعرف على تاريخه بداية من الفلسفة إلى التحولات الأوربية الكبرى التي أدت إلى تحريره التدريجي.

1-1- تصور الجسد في الفلسفة:

لقد أوجدت الفلسفات القديمة ثنائية بين الجسد والروح: فالروح هي المقدس لا بد من تمجيدها لأنها تحت وصاية الله، بينما الجسد يعيق الوصول إلى الحقيقة - والتي هي الهدف المنشود دائما - وبالتالي لا بد من نفيه وإلغائه، فالجسد لا قيمة له.

لقد توصل أفلاطون إلى المقولة التالية: "إن الجسد هو سجن الروح"⁽²⁾ " معنى ذلك أن الجسد لا يترك للروح الفرصة كي تتحرك بحرية، فهو يعيقها عن الوصول إلى مبتغاها . بينما ديكارت يرى أن الفرد منقسم إلى جزئين متنافرين: الجسد والروح الذين تلحمهما الغدة الصنوبرية. يبدو أن هناك تنافر بين الجسد والروح ، وربما قد يؤدي ذلك إلى صراع بينهما، وكل منهما يعيق الآخر عن تأدية وظائفه والوصول إلى أهدافه.

حيث يذكر ديكارت في كتابه التأملات: "سأعتبر نفسي أولا أن لدي وجها، ويدين، وذراعين، وكل هذه

الآلة المؤلفة من عظم ولحم، كما تبدو في جثة أعطيها إسم الجسد"⁽³⁾.

ويتابع ديكارت وصفه " سأعتبر علاوة على ذلك، أنني أتغذى، وأمشي، وأحس، وأفكر، وأحيل كل هذه الأعمال إلى الروح.⁽⁴⁾ هنا ديكارت يرفع الفكر ويبجل الروح، وفي نفس الوقت يعتبر جسده آلة، فيحط من قيمته ويحقره، لكنه ينعت الجسد بأنه جثة، ويغفل عن كونه مكان الموت في الإنسان.

إن الثنائية الديكارتية ليست الأولى التي تفصل بين الروح والجسد، لكنها لم تقم على فكرة دينية. ففيها يتجلى الإهتمام بالجسد، لكنه يبقى تابعا للشخص وعليه سوف يسجل في الملكية الشخصية، ولم يعد غير قابل للانفصال عنه. إن ديكارت بتحليله هذا كأنه إكتشف الجسد ولكنه يبقى عبارة عن حقيقة مستقلة ولكنها مبهمة.

"لقد تغلبت الفلسفة الميكانيكية تاريخيا على الرؤى الأخرى للجسد (...). إن الإستعارة الميكانيكية المطبقة على الجسد ترّن كما لو أنها تعويض من أجل إعطاء الجسد جدارة لم يكن ليملكها لو بقي مجرد جهاز عضوي"⁽⁵⁾. فحسب هذا التصور فإن الإنسان مكون من ثنائية هي الروح والجسد، وهناك تصور آخر للإنسان إنه مكون من ثلاثية : الروح، النفس ، والجسد، والجسد في حدّ ذاته ليس متجانسا: إنه متعدد الأقطاب، يتكون من الرأس، القلب، البطن ، وعناصر أخرى عديدة . لكن تبقى دائما الروح ظاهرة ومبجلة ، والجسد آثم ومدنس، والنفس أمارة بالسوء.

من جهة آخر اعتبر ابن سينا من الأوائل في تاريخ الانسانية الذي طالب بعدم الفصل بين الجسد والنفس، فالإنسان وحدة واحدة لا يتجزأ. وبذلك "استطاع ابن سينا أن يحقق إنسجاما بين الجسد والنفس، بينما لم ير أسلافه إلا الصراع والتنافر المستمر بينه م. وأخيرا⁽⁶⁾" إن التمييز الأنطولوجي بين الجسد والروح ليس مفهوما بوضوح إلا من قبل رجال الفئات العالمة والمتميزة في الطبقة البرجوازية، أما الفئات الشعبية فتندرج في تقاليد بعيدة جدا، و لا تعزل الجسد عن الشخص⁽⁷⁾.

1-2- تصور الجسد في المجتمعات القديمة :

إن مشكلة التمييز بين الروح والجسد كانت هاجسا يعيشه المفكرون فقط، لكن بقية فئات المجتمع مستمرة في معيشتها البسيطة. ولا تهتم بهذه المواضيع المعقدة. فالجسد في المجتمعات التقليدية أين تلحق مكانة الفرد من خلال الجماعة، حيث يذوب فيها دون إعطائه البعد الفردي. "فالجسد في المجتمعات التقليدية، ذات التركيب المتجانس، الجمعي الذي لا يمكن تمييز الفرد فيه، لا يشكل موضوعا للانفصال. إن الإنسان يمتزج بالكون، بالطبيعة والجماعة⁽⁸⁾. ففي هذه المجتمعات يبدو أن الإنسان وجسده غير قابلان للتحديد، ولا يمثلان موضوعا قابلا للانقسام، فالإنسان وجسده مقحمان في الكون والطبيعة والآخرين، فوجوده من أجل الولاء لهم، وبعد جزءا من الإنسجام الكلّي للمجموعة. وعليه فالجسد مرتبط بالطاقة الجماعية، ومن خلاله يذوب الفرد في

صلب الجماعة، ويصبح ملكا لها. ففي القبائل القديمة شكل الإنسان وجسده وبيئته وحدة واحدة حميمة، حيث إستعار خصائصه منها سواء كانت بيئة نباتية أو حيوانية.

يطرح موريس لينهارت (M.Leenhardt) في إحدى دراساته لمجتمع الكاناك مسألة مفهوم الجسد، ويريد أن يحدد موقع المفاهيم الميلانيزية التي تبين مفهوم الشخص وتعطيه معناه وقيمه. "إنّ الجسد لدى الكاناك يستعير خصائصه من المملكة النباتية، فهو جزء صغير غير منفصل عن العالم الذي يغمره، إنه يحبك وجوده من الأشجار والثمار والنباتات." (9) بالنسبة للمجتمع الكانكي يظهر الجسد كشكل نباتي، ولا توجد حدود بينه وبين العالم النباتي، كل منهما إمتداد للآخر، لدرجة أن لكل أعضاء الجسد ما يقابلها في العالم النباتي، فالجلد مثلا يحمل نفس الكلمة التي تطلق على لحاء الشجرة، نفس الشيء فوحدة اللحم والعضلات تشترك مع اللب أو نواة الثمار بنفس الكلمة. كذلك الهيكل العظمي وقلب الخشب يشتركان بنفس الكلمة، نفس الشيء بالنسبة للأعضاء الداخلية المختلفة للجسد، فالكليتان تقابلهما ثمرة ظاهرها يشبه الكلية، الأمعاء تقابلها الضفائر المتسلقة الموجودة في الغابات. "إن الكاناك لا يدركون الجسد كشكل ومادة معزولين عن العالم، فهو يشارك بأسره في طبيعة تتمثله وتغمره في آن معا. إنّ الصلة مع العالم النباتي ليس مجازا وإنما هي هوية جوهرية." (10)

بينما في المجتمعات الإفريقية توجد كلمة جسد، ولكنها تختلف في مفهومها من مكان لآخر، ففي هذه المجتمعات، الفرد غير قابل للتجزئة، فجلده ولحمه لا يرسمان حدود فرديته. "فالإنسان يذوب في جماعة قدرية، لا تعدّ تضاريسه الشخصية فيها مؤشرا على تفرده. وإنما هي فروق مواتية للتكاملات الضرورية للحياة الجماعية، وباعث فريد على الإنسجام التفاضلي للمجموعة (11). فهوية الإنسان الإفريقي لا تتوقف عند جسده، فهذا الأخير لا يفصله عن جماعته، بل يدرجه فيها. ففي هذه المجتمعات لا يكون الإنسان فردا بل يعتبر عقدة في شبكة علاقاته الإجتماعية، إنه يذوب في جماعته. ويتبع أجداده في كيفية توطيد علاقته بجماعته وبيئته.

"في هذه المجتمعات الجسد ليس حقيقة بديهية، ومادة غير قابلة للاختزال: الجسد لا يوجد إلا وهو مبني ثقافيا من قبل الإنسان" (12).

وعليه فالجسد لا يأخذ معناه إلا من خلال نظرة الإنسان الثقافية له. لقد تحول الجسد من ملكية الجماعة والتي يذوب فيها إلى ملكية من نوع آخر، والتي دامت قرونا طويلة في أوروبا في عهد الإقطاعية. حيث مارس الإقطاعيون هيمنة كاملة على الأقنان وعلى أجسادهم، لدرجة أنهم يتمتعون بحق حياتهم أو موتهم كما يشاءون.

1-3- تصور الجسد في المجتمعات الحديثة:

ساهمت التحولات الكبرى التي عرفتھا المجتمعات الأوروبية في عصر النهضة في تحريّر تدريجي للجسد، ابتداءً من نظريات العقد الاجتماعي في القرن السابع عشر ، حيث أكدت على المساواة الطبيعية، وبالتالي مكنت كل فرد من أن يكون سيداً لجسده. ومع ظهور وتنامي مفهوم المجتمع المدني ، تصوراً وممارسة، من خلال المؤسسات والقيم، ومع مساهمة التحولات التقنية، وما فرضته من أساليب لتنظيم الفضاء الاجتماعي في التركيز على الجسد، الذي أصبح ينظر إليه كقدرة وأداة للإنتاج. ومن هنا أقحم الجسد في صلب إستراتيجيات الفاعلين الاجتماعيين. هذا في المجتمع الصناعي إنه أداة عمل يجب جلده و تعنيفه لينتج.⁽¹³⁾

الفئات الريفية والعمالية تعطي قيمة للقوة الجسدية أكثر من الشكل والمظهر الخارجي وشباب الجسد. فهي تستعمل نشاطاً جسدياً يظهر من خلال الجهد العضلي، والتعب طول النهار. لا يترك لهذه الفئات الوقت الكافي للإهتمام بصورة جيدة بالشكل والمظهر الخارجي للجسد. بينما في المجتمع الإستهلاكي أصبح الجسد ذاتاً للرجبة ، فمثلاً فئات الطبقة الوسطى والتمتيزية، وفئات المهن الحرة، فهي تفضل الشكل والمظهر الحسن، وتهتم وتتفق من أجل الصحة والوقاية. وعليه كلما تمركز الفرد أكثر حول ذاته، كلما يأخذ جسده أهمية متزايدة حتى يكتسح كل إهتماماته.

فالجسد حقيقة متغيرة من مجتمع لآخر. ويتنوع المجتمعات بتنوع التصورات، والمعارف والممارسات تجاه الجسد. ويؤدي ذلك إلى اختلاف الخصائص التي تربط الإنسان بجسده، وهذه كلها معطيات ثقافية تتنوع إلى ما لا نهاية. إذن لقد حدث إنتقال الموقف من الجسد تاريخياً واجتماعياً من المجتمعات البدائية والتقليدية التي لم تكن تميز بين الإنسان وجسده، إلى الفلسفات الحديثة التي جعلت الخلاص يمر أساساً عبر الجسد. وأصبحت ذاتية الفرد تمر عبر وعيه بجسده، وعلى التأكيد على تفرده. حتى أصبح الجسد وكأنه العقدة الأساسية التي يتشكل حولها العالم. فالتركيز حول الجسد - أزمة العصر الكلاسيكي العقلاني - أظهر طريقة جديدة لتصوره والتعامل معه. إنه الجسد الذات: يعيش، له متطلباته، شروطه، لذاته، جنسانيته، عاداته، ذاكرته الخاصة....

2- رؤى جديدة للجسد:

منذ نهاية الستينات، ومع إتساع مجالات التنمية التي مسّت كل الميادين، ظهر مخيال جديد للجسد الذي إكتسح ميادين جديدة للممارسة وللخطب، بعد فترة من القمع والتكتم حيث شكّل مكاناً للخطأ ولتصحّحه. لقد أصبح الجسد المكان المميز للرفاهية: من خلال الشكل، أو لحسن المظهر: من خلال بنية الجسد، التجميل، الحماية الغذائية...، أو لإظهار الجهد: من خلال الماراتون، الركض، ومختلف الرياضات، أو للبراعة: من

خلال الترحلق على الثلج أو الجليد... عبر هذه الممارسات في أيامنا هذه، أصبح من غير الممكن التمييز بين الفرد وجسده. ولم يعد يعتبر ملكية ظرفية، إنه يجسد وجود الفرد في العالم، وبدونه لن يكون. وكما قلنا سابقا فالجسد موطن الفرد. بالرغم من وجود مواقف يشعر بها، كأن جسده ينفلت منه. فهو يمر بلحظات من الإزدواجية، فهناك مواقف إنحدار صعبة كالمرض، الإعاقة، التعب، الشيخوخة، وأخرى ممتعة كاللذة، الحنان.

2-1- الجسد علامة التفرد:

مع ظهور الفردانية كبنية إجتماعية، ففي بدايتها أصبح الفرد يعي ذاته، وينغلق فيها، فالجسد يوضح حدود الفرد. لقد أصبح هذا الأخير عامل التفرد إنه المكان والزمان للتمييز". فالنزعة الفردية أدت إلى إكتشاف الجسد في نفس الوقت الذي إكتشف فيه الفرد. "إن الجسد بطريقة ما هو ما يبقى عندما نفقد الأشياء الأخرى"⁽¹⁴⁾.

فمنذ أن تتراخى الصلات التي تربط الشخص بأعضاء جماعته أكثر وأكثر، أو تنقطع نهائيا يبقى الجسد هو الأثر الملموس للفاعل. حينئذ تظهر مجموعة من قواعد التعامل الجسدية الدقيقة، والتي ترتب طابعا إجتماعيا له علاقة بالجسد مبنيا على أساليب الكبت، الحرج، الخجل... فهذه القيم الخاصة بالجسد تعد سلبية. بينما في فترة متقدمة من الإنطلاقة الفردانية، أصبح الجسد القيمة والملجأ. "إن الجسد يبقى المرساة الوحيدة القابلة لأن تشد الشخص إلى يقين"⁽¹⁵⁾. فبواسطته يلتقي الفرد مع الآخرين، ويشارك في تدفق الإشارات، مما يساعده على الإحساس الدائم على صلته بمجتمع يسود فيه عدم اليقين، حيث تتغلب فيه العلاقات الشكلية، والتي تولد أشكالا حديثة للحياة الإجتماعية، تعطي ميزة للجسد، فيؤدي به ذلك إلى الذهاب المنتظم إلى صالات تحسين الشكل، وإلى إتباع دورات المعالجة الجسدية الجماعية، وإلى إتباع نظام الحماية الغذائية، وإلى مزاوله مختلف الرياضات. فيسعى الفرد إلى التأمل في جسده، ليعيش متفتحاً داخل حياته الخاصة، لقد حلت صيغة الحياة الخاصة محل الحياة المشتركة- التي كانت سائدة في الستينات-.

"إن الحياة الخاصة هي القيمة الأساسية في الحداثة، إنها تشمل البحث عن الأحاسيس الجديدة، أحاسيس الرفاهية الجسدية، وإكتشاف الذات، وتتطلب الإتصال مع الآخرين، ولكن دائما بإعتدال وبطريقة المراقبة"⁽¹⁶⁾ لقد أصبح الجسد شريك نطالبه: بالوضع الأفضل، الأحاسيس الأكثر أصالة، مزيج من المرونة، الروح القتالية، القوة والجلد، الطلاقة والأناقة، دون أن يتخلى عن إغرائه. فالجسد هو الشريك الأفضل والأقرب من الذات. وهذا يشمل الجسدين معا الأنثوي والذكوري، لقد حدث تغير في العلامات التقليدية للمذكر

والمؤنث، فالرجل أصبح يعتني ببشرته وشعره. لم يعد يخشى إظهار فخذه في الأمكنة العامة. حتى "إن جسد الرجل وجذعه أصبح من القيم الجنسية التي تكتسح الإعلان أو ملصقات السينما" (17).

أصبح الرجل يبني جسده بذهابه إلى قاعات الرياضة، أين يتحصل على جسد ذي عضلات. في زمن هناك من يتبع و يمدح الجسد ذو العضلات، حتى النساء توجهن إلى قاعات الرياضة، مطالبات بحق القوة، وتربية العضلات.

وعليه لم يعد الجسد قدرا نستسلم له، بل أصبح مادة نشكلها حسب إرادتنا، فالمخيل المعاصر للجسد يخضعه إلى إرادة الشخص الذي يجعل منه مادة مميزة لبيئة الإرادة. فكلما تركز الشخص أكثر حول ذاته، كلما أخذ جسده أهمية متزايدة. حتى يكتسح كل إهتماماته إلى أن يصبح الجسد قرينا إنه "الأنا الآخر".

2-2- الجسد الأنا الآخر:

في عصر الأزمات بين الأزواج، الأسرة، المجتمع، يصبح الجسد مرآة (تحيل الشخص لنفسه)، ذات أخرى يتعايش معها بكل هدوء ومتعة. وفي الوقت الذي يشهد فيه الانفجار النووي داخل قلب الحياة الاجتماعية الغربية، دعي الفرد لإكتشاف جسده وأحاسيسه. وكأنه عالم في حالة توسع مستمر، وشكل قابل للسمو. لقد إرتفع الجسد إلى مرتبة الأنا الآخر. إنه لم يعد ذلك الجزء الملعون الخاضع للتكتم. لقد تحرك الجسد وأخذ مكان الشخص الذي أصبح يلعب دور المرشد. "إن الخطاب في المخيل الإحتماعي، يقوم غالبا بدور الكاشف في هذا الصدد: فكلمة جسد تستعمل غالبا كمعادل كلمة فاعل (Sujet) أو شخص (Personne)". (18) فالمرور من الجسد المادة إلى الجسد الفاعل، يعد إرتقاء إلى مرتبة الأنا الآخر: الشخص بحصة كاملة، وفي نفس الوقت مرآته. ونظرا لإرتقائه إلى مرتبة الأنا الآخر، لا بد من ملاطفته، مداعبته، ذلك، إستكشافه كأرض يجب غزوها، أو كشخص يجب إغراؤه. وبهذا يصبح موضوع كل الإهتمامات، وكل الإستثمارات. يحافظ على رأسماله ألا وهو الصحة، وينمي رأسماله الجسدي في شكل إغراء. "إن المرء يجب أن يستحق شبابه، وشكله، ومظهره، إن عليه أن يناضل ضد الزمن الذي يترك آثاره على البشرة، والتعب والكيلوغرامات الزائدة، وعليه أن يحافظ على نفسه ولا يهملها" (19). فالحياة الاجتماعية تحلم بجسد صافي أنيق. وعلى الفرد أن يركز إهتمامه بجسده، يحافظ على جماله، ويجعل منه رفيقا ممتعا. وبذلك فإن الجسد "الأنا الآخر" يساعد الفرد على وضع بديل للعلاقة مع الآخر. فيصبح الجسد يتباهى بقيمة غير التي عانى منها في زمن الثنائية- أي الاحتقار والنسيان.

2-3- الجسد الفائض:

طوال آلاف السنين، والإنسان لديه نفس الجسد، ونفس الإمكانيات الجسدية. لقد مشى حتى ينتقل من مكان لآخر، ركض، وسبح، لقد أنتج خبرات ضرورية لبقائه مع جماعته. لكن اليوم عطلت الطاقة البشرية. فأصبح للجسد موارد سلبية، فاستبدلت الطاقة العضلية بطاقة التجهيزات التكنولوجية، أدى هذا إلى تراجع تقنيات الجسد الأولية (المشي، الركض، السباحة...) فنجدها جزئيا في الحياة اليومية. في الخمسينات وفي الستينات كان الجسد أكثر حضورا في وعيه، وموارده العضلية. وأكثر تواجدا في قلب الحياة اليومية. لقد كان المشي، والدراجة، والسباحة، والنشاطات الجسدية المرتبطة بالعمل، أو الحياة المنزلية تشجع على ظهور الجسد. ثم هذه النشاطات الممكنة للجسد تمنح الشخص حيوية مع علاقته بالعالم. ويعي نوعية ما يحيط به. لقد أصبح جسد الحداثة، كأنه عضو فائض للإنسان.

لم تستطع التكنولوجيا الحديثة المتمثلة في: السيارات، التلفزة، الأرصفة المتحركة، المصاعد، الأجهزة من كل نوع.... من أن تتوصل إلى إلغائه كليا: فالجسد هو بقية شيء لا يمكن أن يقهر، هذا الشيء تصطدم به الحداثة.

فاختزال النشاطات الجسدية يحدث أثارا على وجود الشخص نفسه. إنه يحد من تأثيره على الواقع. ويقلل من الشعور بقوة الأنا. ويضعف كذلك من معرفته المباشرة للأشياء.

ففي الحياة اليومية - التي تتميز بزخم الوقائع وكثرة الحركات - تبني الحياة العاطفية والعائلية والمهنية.... وتخدم آثار الظواهر السياسية والاجتماعية والثقافية. يظهر الجسد ويشعر بأنه محمي داخل نسيج من العادات و الروتين. ففيها كذلك يحس كل فرد أنه سيد نفسه، عكس الميدان الاجتماعي الذي يفرض السلوك والقواعد التي لا تحوز دائما على إلتناء الجميع. "إن الحياة اليومية تنصب جسرا ضيقا بين العالم المراقب والهادئ المتوفر في البيت، والمصادفات والفوضى الظاهرة في الحياة الاجتماعية".⁽²⁰⁾

ففي الحياة اليومية تلعب الإستعمالات المنظمة للجسد دورا أساسيا للشعور بالأمن. ففيها كذلك يظهر تنظيم دقيق للجسد قد يكون متشابه دائما، أو متغيرا. فمزاج الفرد هو الذي يلون حركاته وأحاسيسه، ويعدل انتباهه للأشياء، فيجعل من الجسد جاهزا أو مكذرا.

فنهار اليوم ليس تكرارا لنهار الأمس: وعليه فكل أحاسيس، وإنفعالات، وكلمات، وحركات الأمس لا تتكرر في اليوم الحالي، بل تتكدر، و تصبح تراكما أساسيا لوجود الفرد. ففي الحياة اليومية يكبر الفرد، يحب، يشعر باللذة، أو بالألم، أو باللامبالاة أو بالغضب....

"إن نبضات الجسد تسمع إستمرارية أصداءها في علاقة الشخص بالعالم، عبر تصفية الحياة

اليومية".⁽²¹⁾

فإضفاء الطابع الإجتماعي على الفرد يؤدي به إلى الشعور بأنه يسكن بشكل طبيعي جسدا من المستحيل أن ينفصل عنه. لكن عبر الأعمال اليومية للفرد يصبح الجسد غير مرئي، وبمحي من خلال التكرار الذي لا يُمل نفس الأوضاع، لكنه يشعر بجسده في حالة تقلص ميدان أعماله، مثلا في حالة المرض يشعر الإنسان أنه أسير جسد يتخلى عنه.

معنى ذلك أن الجسد قد ينسى في الأوقات التي يكون فيها الفرد كثير الإنشغال، ولكن فجأة عندما يضطر الفرد إلى أن يتوقف قليلا، فيشعر بالفراغ وبالتالي يظهر الجسد مرة أخرى. ومن جهة أخرى فإن النزعة الإجتماعية تضع ترميزا خاصا من خلال وضع بعض طقوس المنع والتي تجعل من الجسد ممحيا كذلك.

ففي بعض إستعمالات الجسد لا يسمح بلمس الآخر حتى تسود نوع من الألفة بين المتخاطبين. ولا يسمح بظهور الجسد عاريا، أو معرى جزئيا إلا في بعض المناسبات. وكذلك بالنسبة لتنظيم الاتصال الجسدي: مثل المصافحة، التقبيل، المسافة بين الوجوه والأجساد أثناء المشاركة في التفاعل، وهناك تعبير جسدي لا بد من كتمان كقرقرة المعدة و التجشؤ... كل هذه الطقوس الموجودة في المجتمع تحد من حرية الجسد، وحتى من حضوره، حتى يتحول مرة ثانية إلى سر. إنّ كل طرق التفاعل الإجتماعي تتأسس انطلاقا من تعريف مقبول بشكل متبادل. فالوضع يحدد ضمنيا ما يمكن لهم جسديا أن يسمحوا به تجاه بعضهم البعض، يدرج تحت ذلك كل الأوضاع الجسدية، الإيماءات، والإشارات الحركية، المسافة المحددة الفاصلة بين المتخاطبين. وأصول هذا السلوك الجسدي يختلف حسب جنس المخاطب، عمره، وضعه، وقربته، وكل سلوك منفلت يدرج تحت عدم اللياقة وقد يثير الخجل وحتى الحرج.

بينما الثقافة الإسلامية تتحدث عن الجسد وتهتم به في مواضيع محددة مثل: الغسل والوضوء. ولكن مسموح أن يفتخر به في بعض الأمكنة، لبعض اللحظات. فالجسد بهذا الشكل هو الحاضر الغائب في آن واحد. كونه ضروري لكل الممارسات الاجتماعية، وهو يدخل الفرد في نسيج العالم. فالإنسان العربي يعبر ضمنيا، بطريقة غريبة، و خلال حياته اليومية، عن إرادته في أن لا يحسّ بجسده وينساه ما أمكنه ذلك. (22) بالرغم من كل هذا- كما قلنا سابقا- فإن الفرد يعي جسده إلا في لحظات التوقف عن النشاط اليومي، أو عندما يختفي روتين الحياة اليومية. "ففي الحياة الاجتماعية يعاش الجسد وفقا لنمط الزحمة والعرقلة كمصدر للعصبية أو التعب أكثر مما يعاش وفقا لنمط الإبتهاج أو للإصغاء لموسيقى حسية ممكنة". (23)

يكون هذا نتيجة ضمور قدرة الإنسان على التحرك، وكذلك على حركيته بسبب لجوءه المستمر للسيارة، وإختزال مساحة المساكن، وإضفاء الطابع الوظيفي على الغرف والأمكنة، وضرورة التنقل بسرعة حتى لا يزعج الآخرين.

لقد توصلت دراسة " بول فيريليو Paul Virilio " في سنوات السبعينات إلى إستكشاف هذا الضعف في النشاطات الجسدية للفرد. وأشار بشكل خاص إلى كم أصبحت بشرية المدينة بشرية جالسة، فيما عدا الخطوات القليلة التي تمشي من أجل الوصول إلى السيارة أو الخروج منها، تبقى أغلبية الناس جالسة طوال اليوم".⁽²⁴⁾ وهذا يؤدي بالضرورة إلى التقليل، من قدرة الجسد على الحركة، أو حتى إلغائها. والتقليل من حركيته يؤدي إلى تضرر قدرات الشخص على التدخل في الواقع.

لقد إختصرت الحداثة قارة الجسد، "ولأن هذا الأخير كف عن أن يكون مركز إشعاع للشخص، فقد خسر الجزء الأساسي من قوة التأثير على العالم"⁽²⁵⁾.

3- الجسد في ثقافة الحداثة:

كما قلنا سابقا إن الجسد معطى ثقافي. فهو نص معبر، يمكن قراءته وفك رموزه. فهيبته وأوضاعه، وحركاته، وسكناته ولباسه، وحليه هي تعابير مختلفة المعاني والدلالات، قد تكون خاصة به أو منعكسة من المجتمع عليه. فأصبح الجسد موضوع إهتمام متزايد، وعناية مستمرة على المستوى الفردي وعلى المستوى الجماعي، فتعددت وتنوعت مناسبات عرضه وإبرازه للآخرين فتحول بدوره إلى شبكة من العلامات والرموز سنوضحها لاحقا. وبما أن الجسد صار غائبا عن الحركة العادية للحياة سوف يصبح موضوعا لمراهنات رمزية جديدة: وهي الشكل، الشباب، حسن المظهر، الصحة.....

3-1- لغة الجسد:

إننا نعرف الآخر – للوهلة الأولى من خلال جسده، إنه يظهر لنا في جسده، وبالتالي نرى وندرك جسده. لوبروتون يشاطرنا الرأي حيث يقول " من دون الجسد الذي يعطيه الإنسان وجهها، هذا الإنسان لن يكون. وجود الإنسان جسدي".⁽²⁶⁾ وبما أن الإدراك عملية مباشرة عفوية، دون معرفة مسبقة. فإن معرفة الآخر هي تلقائية لا تحتاج إلى تعلم أو تحليل أو إكتساب. فالجسد يكشف عن: الجنس، العمر، العرق، اللون، الشكل. قد يخبرنا عن الحالة الصحية: معافى أو مريض، عن الوضعية: واقفا أو جالسا ... إن كثيرا من الدراسات النفسانية قد اهتمت بتحليل ذلك النوع من المعرفة – المعرفة الكليانية (الجشطلنتية)- للشخص في جسده، ونفسه، وكليته، ووحدته... لكنها تظهر لنا "أن المعرفة بالجسد معرفة أولى، وهي قطعية كافية بذاتها في عالم الحيوان وفي حالات عديدة عند الفرد"⁽²⁷⁾. وحتى قديما في علم الفراسة، كان الجسد هو طريق معرفة الشخصية، وأداة للكشف عن طبيعة الإنسان أو خصائصه. "إن لغة الجسد عفوية، بل هي قبل كل شيء طبيعية. وهي تكشف عن إنفعالات وعن ردود الفعل البشري تجاه الظواهر والأحداث"⁽²⁸⁾. فالإنسان يتكلم بجسده مثلما يتكلم بلسانه من خلال حركاته، إشاراته، إيماءاته ... "فتعابير الجسد تؤخذ في بنى منتظمة

ومنظمة، وداخل أنساق، أو هي تشكل وحدات مترابطة عضوية وحية وذات دلالات عامة ⁽²⁹⁾. فالكلام الجسدي والمتمثل في الحركات والإشارات والإيماءات لديه دلالات خاصة بكل ثقافة أو مجتمع. ويقوم بوظيفة التعبير عن ما هو نفساني، نقل الرسائل من الأفراد. وهذا الأخير يختلف حسب المستوى الثقافي والاجتماعي للأفراد. فالكلام الجسدي يضع الجسد قيد الرهان ، فمثلا طقوس التحية عند لقاء الفاعلين قد تكون برفع الأيدي، تحريك الرأس، المصافحة، الإنحناء، التقبيل على الوجه أو على الكتف ... يدخل في ذلك توافق الوجه والجسد عند تحدث الفاعلين . إتجاه نظر المتحدث، تغير المسافة بينهم ... يؤكد إفرون (Efron) "أن الإيماءات - الإشارات أو الحركات الإنسانية - حدث ثقافي واجتماعي وليس طبيعة فطرية أو بيولوجية مفروضة على الفاعلين. إذن نؤكد أن لحركات الجسد رموزا ، مثلما يكون للألفاظ رموزا . فمثلا: الصراخ، النحيب، الزغاريد ... وكذلك لمواقع الجسد رموزا: فرديا أو داخل مجموعة ، قد يكون من زويا أو في المقدمة، للى هذا دلالات معروفة داخل الثقافة أو في المجتمع. قد يعبر الفرد عن الخوف أو الغضب بحركات تقراء، وتفهم فورا، ومباشرة. فالحركات الجسدية تساعد على توضيح الرسالة أو ترافقها. فالجسد يعبر، ويفصح، ويؤدي ويوصل أو يفهم ويفهم، فقراءة الوجه تكشف عن الظواهر النفسانية من خوف ، أو تأمل، أو فرح، أو تأزم، نقرأ كل ذلك بلا صعوبة. فالوجه أداة إتصال غير لغوي، و يغير في العلاقة والحوار.

بما أن للجسد لغة، فالكلام الجسدي يختلف بحسب مستوى الأفراد الثقافي والاجتماعي . ويتمتع بخصوصيات محلية وبأخرى يأخذها من مختلف الحضارات، هناك تفاعل مستمر بين لغة الجسد ولغة الكلام. هنا يتجلى في الارتباط الوثيق بين اللغة والجسد، "ونمو اللغة عبر الجسد، أو بواسطته، ومن أجله، وفي حقله، وفرضائه". ⁽³⁰⁾ فقد إلتقطت اللغة التعبيرات الجسدية فنقول: إرتعدت فرائصه من الخوف، إصطكت أسنانه، إقشعر بدنه، وقف شعر رأسه...

فلغة الجسد تبقى دون اللغة اللفظية . وألفاظ الجسد هي حركاته، إيماءاته، مظهره، عوارضه . فتعبيرات الجسد متواصلة عند إنفراده بنفسه، وفي تواصله المستمر مع الآخرين ، وداخل العلاقات". إنه يرسل ويتلقى، يثير ويستجيب، يبث ويرد، يعلن ويخفي... فهو منغمس في شبكة نفسية إجتماعية، في سياق علائقي ⁽³¹⁾.

"إن تعبير الجسد أقدم تعبير، ويتجاوز كل لغة من لغات العالم، لأنه كلام حي عضوي معيوش ومنقوش في اللحم والعظم، يعني ذلك أن اللاوعي مسجل في الجسد. ⁽³²⁾ فالكلام الجسدي يتغير بتغير الأجيال ويتأثر بالتنشئة الإجتماعية. إذن لغة الجسد هي عملية إتصال غير شفوية . تستخدم فيها : الحركات والوضعية، والوضع والمسافات أكثر من أي طريقة . وهي تعد نظاما للتفاهم ، يمكن مراقبتها في المناسبات الإجتماعية ، وفي المجالات المفتوحة، أو في أي مكان يتفاعل فيه الناس. "لاحظ الباحثة وسجلوا حوالي مليون إلماع أو تلميح وإشارة غير شفوية، وقد وجد " ألبرت مهربان " أن مجموع أثر الرسالة هو نحو 7 % شفهي (كلمات

فقط) و 38 % صوتي (بما في ذلك نبرة الصوت، وتغير في نبرة الصوت، وسائر الأصوات)، و 55% غير شفهي⁽³³⁾. ويمكن الإشارة إلى أن الشخص نادرا ما يعي أن لغة جسده قد تبين أن صوته أو كلامه يروي قصة أخرى. أي أن لغة جسده قد تفصح عدم صدقه.

لقد إتفق الباحثون أن لغة الجسد – إن صح القول – تتكون من قسمين: إحداهما تتمثل في حركاته، إيماءاته، أوضاعه وثانيهما ما يستره من ثياب وحلي...

سنتطرق للقسم الثاني ألا وهو موضوع اللباس. يعتبر الزي أو اللباس كونه عملية إستهلاكية، لغة الجسد يعبر عن الداخل، ويلامس الجسد مباشرة، فالجسد حامله قد يحجبه أو يعريه. فاللباس يعبر عن إرادة تقديم، وإستعراض الذات، إنه يكشف كذلك عن نظرتنا له. فاللباس رسالة للآخر، إنه طريقة أو أداة تستخدم في عملية الإعلام والإتصال. يعبر عن الموقع، وعن الرغبة الواعية واللاواعية. ويبين عن الموقف من المجتمع والطريقة الحياة. من خلال اللباس نتعرف على الجنس، العمر، وحتى المركز الإجتماعي للمستهلك، إنه يظهر الطبقة الإجتماعية التي ينتمي إليها الفرد. "لقد أصبحت "الموضة" في متناول الجميع و الإهتمام بالشكل الخارجي ضرورة إجتماعية. ثم إتسع الإستهلاك حتى شمل الإنسان في كليته⁽³⁴⁾. ويجدر القول أن الموضة لا تعني اللباس فقط إنما مختلف أشياء، حتى السلوك.

فالموضة طارئة، ولكنها منتظمة، دائما جديدة وواضحة، وإنها مليئة بالرموز والمعاني. فهي ظاهرة نفسية إجتماعية تلعب دورا مهما في المجتمع الإستهلاكي. إنها عنصر أساسي للتعبير عن طبقات المجتمع. تتعلق الموضة بالتطور العام في المجتمع الإستهلاكي. وتبدو ملتصقة به أشد الإلتصاق.

ففي مجتمعاتنا الحالية، تطورت الموضة بسرعة، وإتسعت بواسطة وسائل الإعلام حتى شملت الفئات الشعبية. وأصبحت في متناول الجميع. مما أدى إلى حتمية الإهتمام بالشكل الخارجي، فأصبح هذا الإهتمام ضرورة إجتماعية. وبذلك إتسع المجال الإستهلاكي.

الرغبة أن تتبع وتوافق " الموضة " ظاهرة عالمية، وأن تلبس على " الموضة " طريقة لجلب الآخر. "إنه المظهر الذي يعرض للجمهور وعلى الآخر الذي نراه ونحكم عليه".⁽³⁵⁾ المهم في الموضة إعطاءنا صورة الإسترخاء، والتميز بصورة السعادة. يكون ذلك أولا بهدف الإستهلاك. هذا الظاهر لكن يجب ألا نغفل على أن الموضة الغربية قد لا تتوافق مع خصوصيات مجتمعاتنا. إنها تبعدنا عن عاداتنا وتقاليدينا، فهي تصيبنا في أجسادنا. فهي تعيد قولبة أجسادنا على طريقتها. وفي الأخير تصبح أجسادنا وسيلة للإستهلاك، وبما أن الشخصية لها علاقة حميمة بالجسد – داخله وخارجه – فإن شخصياتنا تتعرض للإغتصاب...

وأخيرا فمن المجتمعات البدائية حتى عصر الحداثة، يبقى الإنسان مهتما ومشغولا بكل تحولات جسده من خلال اللباس، الوشم، وحتى حفر الأشكال على جلده... كل هذه الطرق المستعملة فهي رمزية تعبر أحيانا عن الفرح، أو الحزن، أو عن الأعياد، أو المناسبات، وتساهم كذلك في تغيير صورة الجسد.

ويمكن أن نذكر على سبيل المثال عارضة الأزياء التي لا ي غو أن يكون جسدها إشارة إلى نوع من الجمال وإلى شكل من أشكال الأنثوية الجميلة، بمعنى "أن جسدها لم يعد موضوع رغبة في حد ذاته بقدر ما هو مجموع من علامات ورموز تتأسس في الموضة الراهنة وفي الشقبة المتطورة التي أصبحت تشكل وجهها هاما من وجوه عصرنا الحالي.⁽³⁶⁾ نأخذ مثلا آخر وهو الإشهار، فالغاية من الإشهار هي واحدة: إنها البحث عن سبل بيع منتج ما، والبحث عن المردود. فالأجساد العارية، أو نصف العارية ليست غاية في حد ذاتها في العملية الإشهارية، بل الغاية الموجودة هي البيع. والأجساد هي الوسيلة لإنجاح عملية البيع. وعليه لقد تحول الجسد إلى مجرد أداة تجارية. فلصبح الجسد في نفس الوقت يعيش نوعا من الإغتراب على أثر فقدانه لأحد معانيه الأولى "إذ أنه لم يعد الموضوع الأصلي والحقيقي للرغبة وإنما تحول إلى أداة تسير إلى مواضيع أخرى لهذه الرغبة: وبعبارة أخرى إن الرغبة أصبحت لا تنصب على الجسد بل هي تتعداه لتنصب على البضاعة المعروضة للبيع"⁽³⁷⁾. قد ينزلق الجسد عن مساره ويصبح أداة تجارية.

إن عصرنا م هوس بالشباب، والصحة، والجمال الجسدي. يبين لنا أن جسدا شابا ناعما، وإبتسامة تملأ الوجه الجذاب تمثل السعادة. ويرتفع شأن الجسد في سلم القيم والمثل، ومن جهة أخرى فتقافة الإستهلاك تحتفل بالجسد كحامل للذة، إنه المشتى ومحل رغبة الآخرين، فهذه الأخيرة تبيح وتحت على إستعراض الجسد: مما أدى إلى ظهور تصاميم كثيرة ومتنوعة تظهر الجسد على شكله "الطبيعي". هذا يناقض تماما تصور القرن الماضي حيث كان دور اللباس هو إخفاء الجسد. "إن زي الرجل في الحقبة الفكتورية يبرز هاجس فرض الإحترام، وعدّ الجسد الذكوري كمسجوب لأزياء واسعة لا تميز وأصاله فيها، وألوانها قاتمة وأوجبت نفس الحقبة أن يحبس الشكل الأنثوي في مشد لخلق شكل معمم يشبه الساعة الرملية"⁽³⁸⁾.

أما في ثقافة الإستهلاك فقد أصبحت المناسبات التي يكشف فيها عن الجسد كله أو بعضه، سواء في وضعية حميمية، أو خارجها، أكثر توفرا مثلا في أماكن التسلية واللهو، على شواطئ البحار، وحتى في المنازل المكيفة بلمتشار التسخين المركزي. أقبل الأفراد على إقتناء الملابس الخفيفة مما سمح بظهور الجسد. وأصبح إستعراض الأجساد أمرا مشروعاً. بالرغم من أن الجسد يملك خصائص ثابتة. كالقائمة والبنية العظمية والعضلية. إلا أن هناك محاولات لإقناع الفرد على أن يبذل جهدا لممارسة الرياضة حتى يتحصل على المظهر الجسدي الذي يثمنه المجتمع. الدليل على ذلك الكم الكبير من النصائح التي تحتويها الصحف، والمجلات التي تحمل الفرد وتجبره على تحمل مسؤولية هيئته، ومظهره، سواء بإتباع نظام يومي صارم من

تمارين رياضية أو حمية غذائية. هذا الوضع لا يهم الشباب فقط - كما يبدو لنا - بل الشاب والكهل وحتى الشيخ، تطالبه ثقافة الإستهلاك بالعناية الحازمة بجسده، حتى يتغلب على تدهور " الجسد الطبيعي " أو خيانة الجسد التي تأتي مع الشيخوخة : كالتجاعيد ، وإرتخاء العضلات ، والميل إلى البدانة. وتتم هذه المقاومة بمساعدة صناعات التجميل، واللياقة البدنية، ووسائل اللهو، والترفيه.

خلاصة:

لقد حدث إنتقال الموقف من الجسد تاريخيا وإجتماعيا، فمن المجتمعات التقليدية التي جعلت من الفرد وجسده وبيئته وحدة واحدة حميمة، إلى المجتمعات الحديثة التي اعتبره أداة إنتاج يجب إستغلاله وتعنيفه. وحتى الفلسفات جعلت الخلاص يمر أساسا عبر الجسد، فجاءت التحولات الأوربية الكبرى في عصر النهضة لتساهم في تحريره التدريجي. ثم جاء جسد الحداثة الذي أصبح المكان المميز للرفاهية: إنه ذات، له متطلباته، شروطه، لذاته... فهو جسد له لغته التي يعبر بها، وهي قوية ، تتمثل في حركاته، وإشارته، وإيماءاته، وأيضا في زيّه، أو لباسه. واللغة الجسدية تتميز بدلالات توافق ثقافة كل مجتمع. فصار الجسد "علامة التفرد" فهو الشريك الأفضل للذات، ثم ارتقى إلى مرتبة " الأنا الآخر ". وربما سينزلق ويتغير مساره وبصبح الجسد "الفائض"، حيث تقل قوة تأثيره، ويستبدل بتقنيات تحد من فعاليته أو تلغيها. وربما سيعود مرة ثانية إلى مستوى اللاقيمة كما كان في البداية .

- (1) منى فياض: فخّ الجسد، رياض الريس للكتب، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 2000، ص 33.
- (2) دافيد لوبروتون: في أصول تصور حديث للجسد، ترجمة هشام الحاجي: الجسد (نصوص مترجمة)، نقوش عربية، تونس، دون سنة. ص 183.
- (3) دافيد لوبروتون : أنثروبولوجيا الجسد والحداثة، ترجمة، محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ، بيروت ، لبنان، 1997، ص60.
- (4) نفس المرجع، ص60.
- (5) نفس المرجع، ص79.
- (6) نوال السعداوي: دراسات عن المرأة والرجل في المجتمع العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1971، ص384.
- (7) دافيد لوبروتون: في أصول تصور حديث للجسد، ترجمة هشام الحاجي، الجسد (نصوص مترجمة)، مرجع سبق ذكره، ص185.
- (8) نفس المرجع، ص20.
- (9) نفس المرجع، ص14.
- (10) نفس المرجع، ص 15.
- (11) نفس المرجع، ص23.
- (12) نفس المرجع، ص25.
- (13) نفس المرجع، ص195.
- (14) نفس المرجع، ص152.
- (15) نفس المرجع، ص 152.
- (16) نفس المرجع، ص 154.
- (17) نفس المرجع، ص155.
- (18) نفس المرجع، ص 156.
- (19) نفس المرجع، ص160.
- (20) نفس المرجع، ص 90.
- (21) نفس المرجع، ص 90.
- (22) نفس المرجع، ص122.
- (23) نفس المرجع، ص 162.
- (24) نفس المرجع، ص 162.
- (25) نفس المرجع، ص 163.
- (26) منى فياض: فخّ الجسد، مرجع سبق ذكره، ص34.
- (27) علي زيعور: الجسد في اللاوعي الثقافي العربي، ترجمة هشام الحاجي: الجسد (نصوص مترجمة)، مرجع سبق ذكره، ص50.
- (28) نفس المرجع، ص50.
- (29) David le breton : La sociologie du corps, édition, PUF; Paris, France, 1997, p 53.
- (30) علي زيعور: الجسد في اللاوعي الثقافي العربي، ترجمة هشام الحاجي، الجسد (نصوص مترجمة)، مرجع سبق ذكره، ص 53.
- (31) نفس المرجع، ص 58.
- (32) نفس المرجع ، ص59.
- (33) ألن بيز: لغة الجسد، ترجمة: سمير شيخاني، الدار العربية للعلوم، بيروت، لبنان، 1997، ص8.
- (34) مي جبران: الموضة: لغة الجسد، ترجمة هشام الحاجي: الجسد (نصوص مترجمة)، مرجع سبق ذكره، ص 13.
- (35) نفس المرجع ، ص 16.
- (36) جلال الدين سعيد: فلسفة الجسد، دار أمية للنشر، الطبعة الثانية، تونس، 1993، ص91.
- (37) نفس المرجع، ص ص 91-92.
- (38) مايك فاينرستون: الجسد في ثقافة الإستهلاك، ترجمة هشام الحاجي، الجسد (نصوص مترجمة)، مرجع سبق ذكره، ص41.